الامام داود بن ادريس
من خلال الوثائق التاريخية

عبد الهادى التازى

فى البحث الذى قدمته للمؤتمر الثالث للآثار بالبلاد العربية(١) كنت أثرت الحديث عن « اللوحة » التى أكتشفت بالبلاط الأوسط فى أثناء أعمال الترميم التى جرت بجامع القرويين منذ سنوات وقد كانت تحمل اسم داود ابن ادريس وتاريخ سنة ٢٦٣ . وكنت تساءلت عن مملكة الامام داود ، وكان قصدى دون ريب من هذا التساؤل هو أن نصل الى القاء بعض الضوء على هذه المرحلة « القلقة » من تاريخنا القديم ، وبعد هذا كنت نشرت كلمة(٢) ثانية أجدد فيها الأسئلة مرة أخرى وأفترض مع هذا « شريطاً » على ضوء الأحداث . وحاولت أن أفهم أن الامام داود ظل بعد وفاة يحيى الأول مسيطراً على فاس سيما وقد خسر يحيى الثانى ورقته بها ، وسيما أيضاً ودولة خلفه على مجهولة البدء والنهاية ، وأنه أى داود استمر اماماً الى أن كانت دولة يحيى الثالث الذى أغتيل سنة ٢٩٢ . وكانت هذه مجرد فروض تهدف الى « نبش » دفائن التاريخ فى انتظار أن أتوفر على ما يبعث « الحقيقة » من مرقدها . وسرنى أن يجد البحث صداه ولو فى طائفة جد قليلة ممن يجدون « هواية » فى التاريخ ، وها نحن اليوم نقف على بعض المصادر الأخرى فيها

---

(١) مجلة دعوة الحق المغربية عدد يناير ١٩٦٠ ص ٤٥ ، فصلة من مجلة كلية الآداب — جامعة الاسكندرية ، العدد الرابع عشر ١٩٩٠ ص ٦١-٨٨

(٢) مجلة التربية الوطنية المغربية ، العدد الرابع سنة ١٩٦٠ ص ١٩ و ٢٠ . مجلة الفكر التونسية عدد مارس ١٩٦٠ ص ٥٢٠-٥٢٣

(٣) الأعلام للأستاذ خير الدين الزركلى ، المجلد الأول ص ٩٠

بعض النصوص التاريخية ، وفيها « نقود ادريسية » وفيها تعاليق لبعض الأساتذة الأجانب ممن عنوا بالدراسات التاريخية (١) .

وأحب بادىء ذى بدء أن أتصفح أمامكم « كتاب البلدان » لأحمد ابن أبي يعقوب ابن واضح المعروف باليعقوبي والمتوفى أواخر القرن الثالث الهجرى ، لقد قال وهو يتحدث - أيام شبابه - عن ممالك المغرب :

« ومن (٢) مملكة صالح بن سعيد الحميدى يصير الى مملكة بنى ادريس ابن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب عليهم السلام ، وأول حد مملكتهم بلد يقال له غمره (؟) ، بها رجل يقال له عبيد الله بن عمر بن ادريس ، ثم الى بلد يقال له ملحاض لخانة (؟) عنده يجتمع حاج النوس الأقصى وطنجة ويملكه على بن عمر بن ادريس . ثم قلعة مدينة وهو بلد عظيم به محمد بن عمر ابن ادريس ، ثم من قلعة مدينة الى النهر العظيم الذى يقال له لمهارنة (؟) حصون وعمارات وبلد واسع عليه رجل من ولد داود بن ادريس ، والى نهر يقال له صبو عليه حمزة بن داود بن ادريس بن ادريس . ثم يدخل الى المدينة العظمى التى يقال له مدينة افريقيا على النهر العظيم الذى يقال له فاس (٣) بها يحيى بن يحيى بن ادريس بن ادريس ، وهى مدينة جليلة كثيرة العمارة والمنازل (و) ؟ من الجانب الغربى من نهر فاس ، وهو نهر يقال : انه أعظم من جميع أنهار الأرض عليه ثلاثة الف (كذا) رحا تطحن للمدينة التى تسمى مدينة أهل الأندلس ينزلها داود بن ادريس ، وكل واحد

(١) Hesperis 1er Trimestre 1934 t. XVIII Fas 1 Page 4148

(٢) ص ١٣٧ من كتاب البلدان ، طبعة ليدن سنة ١٨٩٠

(٣) يرى الأستاذ لاوست ان فاس مقلوب عن كلمة ساف التى تؤدى بالبربرية معنى الوادى (المغرب - عدد أكتوبر ١٩٦٠) .

من يحيى بن يحيى ، وداود بن ادريس يخالف على صاحبه يدافعه ويحاربه » .

نرى من خلال هذا أن المغرب ما يزال كما عهدناه منذ سنة ٢١٣ أثر وفاة ادريس فهو بين الشرفاء دائماً ، وفى بعض هؤلاء من صار نصيبه الى بنيه ، لكن مع هذا اكتسبنا عناصر جديدة بواسطة هذه النقول ، فلقد عرفنا أولا من أولاد عمر بن ادريس محمداً وعبيد الله ، بالاضافة الى ولده على الذى فر فى وجه « الخوارج الأباضية » (١) ، وبالاضافة كذلك الى ادريس والد يحيى الرابع الذى سلب الإمارة سنة ٣٠٩ (٢) . وعرفنا ثانياً أن للامام داود ابن ادريس عقباً تولى زمام الأمر بدوره فى بعض الجهات من المغرب ، ومن هذا العقب ولد لم يعطه اليعقوبى اسماً لكن فيه ولداً ثانياً عرف تحت اسم حمزه . وعرفنا ثالثاً وهذا مهم أنه فى الوقت الذى كان يوجد فيه يحيى بن يحيى على « المدينة العظمى » (يعنى عدوة القرويين) فى هذا الوقت بالذات ، كان داود بن ادريس ينزل (مدينة أهل الأندلس ، وعرفنا أخيراً وهو أيضاً مهم أن كلا من يحيى بن يحيى ، وداود بن ادريس كان يخالف على صاحبه ويناوئه .

ولكى نلم بسائر النقول نعطف على كتاب «البيان المغرب فى أخبار المغرب » لابن عذارى المكتوب سنة ٦٠٢ ، فلقد ذكر (٤) أنه لما ولى الامام يحيى بن محمد بن ادريس ولى (أى يحيى هذا) أعمامه وأخواله أعمالا ، فولى حسيناً القبلة من مدينة فاس الى أعمات ، وولى داود المشرق من مدينة فاس : مكناسة وهوارة والمدينة ، وولى القاسم غربى فاس : لهاتة وكتامة ، وتشاغل يحيى عما كان يحق له من سياسة أمره فملك أخواته أنفسهم واستمالوا القبائل ، وقالوا لهم : « انما نحن أبناء أب واحد وقد ترون ما صار اليه أخونا يحيى من اضاعة أمره فقدمهم البربر على أنفسهم تقديماً كلياً » .

(١) ابن خلدون ، طبعة الرباط الجزء الأول ص ١١٣
(٢) المصدر السابق ، ص ١١٧
(٣) ص ١٢٢ المصدر المذكور .
(٤) صفحة ٢١١ طبعة مولانا .

وبعد كل هذا هناك وثيقة أخرى تعتبر من الأهمية بمكان ، وهي : « الدرهم » الذي يوجد(١) الامام داود بن ادريس بالمكتبة الوطنية بباريز . لقد استطاع أن يحتفظ بجل ما نقش عليه ، وهكذا نقرأ على دائرته : « بسم الله ضرب الدرهم بواطيل (؟) سنة .. عشرين ومئتين » ، وفي سطحه وسطاً : « لا إله إلا الله وحده .. محمد .. لا شريك .. له .. علي » ، كما يوجد به على شكل هلال : « المنتصر بالله .. محمد .. رسول .. الله .. داود بن ادريس .. علي » .

فمن خلال هذه الوثائق كلها ، ومن خلال لوحة الأرز التي كشفت عنها أعمال الترميم ، والتي نقشت على عهد الادارسة ، أقول من خلال كل هذا يتأكد أن الامام داود ظل بالفعل ـ كما افترضنا سابقاً ـ مسيطراً في تلك الفترة الغامضة من تاريخنا القديم أو بالحري مسيطراً في بعض منها . بل اننا الآن امام وثائق تتضافر بعضها يثبت أن مملكة داود كانت تشتمل في وقت ما مساقات شاسعة . وانها ابتدأت من حيث كانت بادىء الأمر من نفزة وهوارة تاسمنت (٢) أو تاملیت(٣) ، ثم قصدت تدريجياً وجهة فاس ، ولأجل أن نتبين بوضوح ينبغي أن نرسم أمامنا سلماً لبني ادريس الأولين مقروناً بتاريخ الوفاة المحفوظ حتى نستطيع أن « نحصر » فترة سيطرة الامام داود « المختمة » على مدينة فاس :

يتضح من كل هذا أن تقسيم المغرب سنة ٢١٣ الذي تجدد بعض الشيء منذ حركة التمرد التي قام بها عيسى بن ادريس حيث اتسعت منطقة عمر بن ادريس ... كما هو معلوم ـ بالاستيلاء على حظ أخويه القاسم وعيسى ،

(١) La Croix, catalogue de monnaies musulmanes de La Bibliotheque nationale page 69 No 921

(٢) انظر في دائرة افريقيا والمغرب للبكري ص ١٢٤

(٣) ابن عذاري المراكشي الجزء الأول ص ٢٩٩ طبعة بيروت

(٤) نجد الأستاذ ديرنبورغ في حديثه له حول الموضوع « الفراغ الموجود قبل عشرين » و« مئتين » . Melanges d'histoire et d'archeologie t. II page 72

921

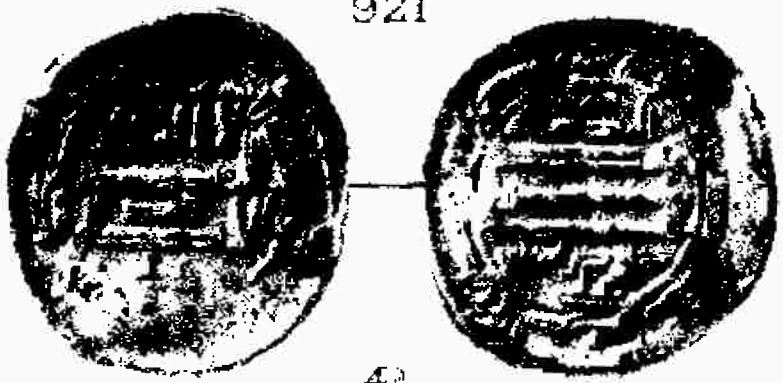

Æ

أقول أن ذلك التقسيم لم يكن تقسيما حقيقياً أي أن السلطة المركزية ظلت في فاس ، وظل « النواب » نواباً بيد أنه أثر موت الأخ الأكبر محمد بن ادريس سنة ٢٢١ استأثر كل واحد بامارته على سبيل الاستقلال فيما يظهر ، وبهذا نفسر وجود نقود للمنتصر بالله الامام داود بن ادريس بتاريخ يتراوح بين ٢٢١ وبين ٢٢٩ ، ثم بعد أن انتصب الامام يحي قام من تلقاء نفسه بتقسيم جديد بين أعمامه وأخواله ، وفي صدرهم الامام داود الذي مايزال محتفظاً بالحياة . وهكذا اتسعت منطقة داود بن ادريس وشمل المشرق : مشرق مدينة فاس مما جعله يستعين بأحد بنيه على تسيير قلعة مدينة ، وبالآخر – وهو حمزه – على ناحية وادي سبو ، وقد كان داود في هذا الوقت قد استقر بعدوة الأندلس كعاصمة لذلك « المشرق » ، وصادف الأمر – فيما يلوح – صعود يحي الثاني للحكم ، في الضفة المقابلة : عدوة القرويين وهنا أخذ داود يضايق يحي ابن يحي على « المدينة العظمى » ، ونحن نعلم أن يحي هذا اضطر للانسحاب من الحكم سنة ٢٥٢ (١) على أثر هفوة أو مناورة ، وكان بعده الامام علي بن عمر الذي لم يستطع مقاومة الخوارج الصفرية فترك لهم عدوة الأندلس وخرج فاراً بنفسه . بينما صمدت عدوة القرويين واستقدمت الأمير يحي ابن القاسم .. فمتى لاذ عمر بأذيال الفرار ؟ ومتى تمكن يحي ابن القاسم من ارضاء رغبة عدوة القرويين ؟ لا يوجد لدينا لحد الآن تاريخ ... ثم هل يمكن أن يبقى داود بن ادريس بعدوة الأندلس « بارداً » في هذه الفترات ؟ لابد أن نرجع الى « اللوحة الأثرية » من جديد فهي تحمل اسم داود وتاريخ ٢٦٣ ، ويمكن أن تضفي بعض الضوء على هذه « العشر سنوات القلقة » . ولعل أقرب الفروض يتجلى في أن الامام داود وجد في سلوك يحي حفيد أخيه محمد ، كما وجد – بعد – في ضعف ابن أخيه علي بن عمر ما يبرر اقتحامه للمدينة العظمى عدوة القرويين حيث – فيما يتأكد – تبنى عام ٢٦٣ مسجد فاطمه أم البنين . ومن يده تسلم الزمام الأمير يحي الثالث المغتال سنة ٢٩٢

(١) الحلة ، المجلد الأول ص ٩١

وهكذا يكون الامام داود دخل فى التاريخ منذ سنة ٢١٣ واستمر — على الأقل — الى سنة ٢٦٣ أى نحواً من خمسين سنة ، فاذا فرضنا أنه كان فى عمره يوم أن أصبح عاملا لاقليم تازه نحواً من عشرين سنة يكون صاحبنا قد عمر نحواً من سبعين سنة .

ترى هل تكون هذه هى الكلمة العاملة فى الموضوع ؟